ألفاظ الحضارة والأنساق الثقافية في الشعر الجاهلي

(امرؤ القيس وزهير بن أبي سلمى نموذجاً)

*** زينه البوظه**

معيدة في جامعة دمشق ـ طالبة دكتوراه في جامعة تربيت مدرس-كلية العلوم الإنسانية ـ قسم اللغة العربية وآدابها.

*البريد الإلكتروني: zeinaruby24@gmail.com

الاستلام	2024/12/20	المراجعة	2025/1/15	القبول	2025/2/10	النشر	2025/4/1

الملخص:

تحاول الدّراسة الحالية معرفة الخلفية الفكرية للمجتمع الجاهلي من خلال الأدوات التي استعملها الجاهليون في المجالات المختلفة، وتحليل دلالاتها القريبة والبعيدة للوصول إلى القيم والأفكار التي سادت في المجتمع آنذاك، وذلك من خلال تسليط الضوء على ديواني شاعرين يُعدّان من أهم شعراء الجاهلية، وهما "امرؤ القيس"، و"زهير بن أبي سلمى"، واستخراج أسماء الأدوات والوسائل التي ورد ذكرها في قصائد الشاعرين، والتي استعملها الجاهليون لقضاء حوائجهم المختلفة، وعكست الكثير من الأفكار والمتقعدات السائدة في تلك المدة الزمنية، وقرّبت صورة الحياة الجاهلية إلى الأذهان، كطريقة العيش وأسلوب التفكير؛ في ضوء النقد الثقافي والنقد التاريخي للحصول على النتائج، من خلال جمع أهم الأدوات وتصنيفها، والبحث عن دلالاتها الثقافية والفكرية، وأهمّ النتائج التي توصلت إليها الدراسة أنّ أدوات الحرب هي أكثر الأدوات تكراراً في أشعار الشاعرين سابقي الذكر كأسماء السيوف والرماح، والأكفان والقبور ، وأنّ العرب استعملوا بعض وسائل الزينة للعلاج الطبي وشفاء الأمراض ككحل الإثمد. وحظيت المرأة الجاهلية بعدد كبير من ألفاظ الحضارة التي تتعلق بأدوات الزينة وأنواع الملابس التي تعكس طبقات المجتمع الجاهلي في ذلك الوقت.

الكلمات المفتاحية:

ألفاظ الحضارة، الأنساق الثقافية، الشعر الجاهليّ، امرؤ القيس، زهير بن أبي سلمى.

Terms of Civilization and Cultural Patterns in Pre-Islamic Poetry

(Imru' al-Qais and Zuhair bin Abi Sulma as Models)

*** Zeina Al-Bouzza:**

Lecturer at Damascus University – PhD Student at Tarbiat Modares University, Faculty of Humanities, Department of Arabic Language and Literature.

*Email: zeinaruby24@gmail.com

Abstract:

This study seeks to explore the intellectual background of pre-Islamic society by examining the tools and objects used by the Arabs in various fields and analyzing their immediate and deeper meanings to uncover the values and ideas that prevailed at the time. The research focuses on the poetry collections of two of the most significant pre-Islamic poets, *Imru' al-Qais* and *Zuhair bin Abi Sulma*, extracting the names of tools and instruments mentioned in their poetry. These objects, used by pre-Islamic Arabs for daily necessities, reflect the dominant ideas and beliefs of the era and provide insights into pre-Islamic life, including modes of living and ways of thinking.

Utilizing cultural and historical criticism, the study gathers and classifies the most important tools, exploring their cultural and intellectual significance. One of the key findings is that tools of war, such as swords, spears, shrouds, and graves, appear most frequently in the poets' works. Additionally, the study reveals that Arabs used certain adornment materials, such as *antimony kohl*, for medical treatment and healing. Furthermore, pre-Islamic women had a significant number of civilizational terms related to beauty accessories and clothing, which reflect the social classes of that time.

Key words: Civilizational Terms, Cultural Patterns, Pre-Islamic Poetry, Imru' al-Qais, Zuhair bin Abi Sulma.

المقدمـــــة:

الثقافة هي لفظٌ فضفاضٌ يشمل اللغة المشتركة، ومجموعة المعتقدات الدّينية، والسّياسية والفكريّة، وفلسفة الوجود لجماعةٍ من البشر دون غيرهم، وإذا أردنا التعرّف على ثقافة مجتمع ما؛ فحريٌّ بنا تتبع الآثار الأدبية التي خطّها أبناؤه من شعرٍ ونثرٍ وحكمٍ وأمثال، لأنها مرآةٌ تعكس مظاهر المجتمع وثقافته من الطّعام والشراب والموسيقى وأنماط التفكير. ولما كان الشعر ديوان العرب الذي أودعوا فيه تراثهم وتاريخهم منذ العصر الجاهلي إلى يومنا هذا، ومع وجود المصادر التي تناولت هذه المدة الزمنية التي سبقت الإسلام، يبقى الشعر الوثيقة الأولى التي تقرّب إلى أذهاننا حياة الجاهليين وتكشف النقاب عن الثقافة المشتركة، وأنماط التفكير التي سادت في ذلك الزمان، لذلك تسعى هذه الدراسة إلى إحصاء أهم الأدوات والوسائل التي استعملها العرب في الجاهلية، ومعرفة دلالاتها وأبعادها الثقافية في الفكر الجمعيّ عندهم، فاستعانت الدراسة الحالية بالنقد الثقافي الذي يُعنى بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصفاته، بمعنى أنه يهتم بالجانب الخفي في الخطابات الأدبية، والجوانب المضمرة في السياق العقلي واللاعقلي لصاحب النص، ومن أهم رواده عبد الله الغذامي الذي يهتم بالأنساق الثقافية المضمرة في النص؛ «فهو يركز على الخطابات الجماعية وليس على الخطابات الفردية، ولذلك نراه قد اهتم بالمتخيل الجماعي الذي تشترك فيه كل فئات المجتمع، فالذي يهمه في الكتابات الأدبية هو كتابات المبدعين الذين يعبرون بلسان الجماعة، وهو بهذه الطريقة لا يقرأ النص من منظور نقدي أكاديمي بل من منظور ثقافي يكشف الخفي في الحمولة الثقافية التي يتضمنها النص الإبداعي» . (محمد يوب،2010)

www.m.ahewar.org

وتحاول هذه الدراسة من خلال دراسة ديواني الشاعرين السابقين الإجابة عن السؤالين الآتيين:

سؤالا الدّراسة:

1-ما أهم أنواع الأدوات التي كان يستعملها العرب في العصر الجاهلي، وما دلالاتها الثقافية؟

2-ما أكثر ألفاظ الحضارة تداولاً في ديواني الشاعرين؟

الدّراسات السّابقة:

تعاني هذه الدراسة من قلة المصادر والدراسات التي تناولت موضوع ألفاظ الحضارة، وسنشير إلى بعض المصادر التي استعانت بها الدراسة للحصول على نتائج البحث، وهي مرتبة من الاقدم إلى الأحدث:

1-دراسة الغذامي،عبدالله(2005).النقد الثقافي «قراءة في الأنساق الثقافية العربية».المركز الثقافي العربي. الطبعة الخامسة.الدّار البيضاء/ بيروت. 9-القاسمي، علي(2009).ألفاظ الحضارة «ماهيتها وأثر توحيدها في تنمية اللغة العربية». مجلة المجمع الجزائري للغة العربية. العدد التاسع

2-دراسة أبو الرب، ابتسام نايف الصالح(2006م).«صور الحرب وأبعادها الأسطورية في الشعر الجاهلي». رسالة قدمت لنيل درجة الماجستير في جامعة النجاح الوطنية. فلسطين.

الإضاءة على مصطلحات الدّراسة:

ألفاظ الحضارة:

ونقصد بها الألفاظ والكلمات التي يطلقها أبناء مجتمعٍ ما على أداةٍ أو وسيلة أونوع من الفنون أو الموسيقى أو الملابس وغيرها مما يرتبط بثقافة ذلك المجتمع، ويعرفه تيمور (1971م:406) بأنها «اللفظ الذي يشيع على أوسع نطاق في محيط الجمهور العام لتسمية أسباب الحياة في البيت والسوق، فهوقاسمٌ

مشتركٌ أعظم في كلّ فروع المعرفة والثقافة والصناعة والتجارة والعلوم البحتة والعلوم الاجتماعية والإنسانية والفنون والآداب» والمعيار الرئيس لهذه الألفاظ هو الشيوع والاستعمال فهو لا يقتصر على فرد دون غيره من أبناء المجتمع. ونقصد بمصطلح «ألفاظ الحضارة» في هذه الدراسة الأدوات والوسائل التي عرفها العرب في العصر الجاهلي، واستعملوها في حياتهم الواقعية.

الثقافة:

«مجموع العوامل الفكرية والدينية والتاريخية والفلسفية والسياسية التي تتفاعل في حياة أفراد المجتمع وسلوكهم، وتنتقل عبر الزمن من جيلٍ إلى جيل». (القاسمي:2009، 78).

الأنساق الثقافية:

نقصد بها المعاني والأفكار التي تتجاوز حدود اللغة إلى المخزون والذاكرة الجمعية لفئة من الناس. والنسق عند الغذامي (2005: 79) هو: «الدلالة المضمرة، وهذه الدلالة ليست مصنوعة من مؤلفٍ، ولكنّها منكبّة ومنغرسةٌ في الخطاب، مؤلفتها الثقافة، ومستهلوكها جماهير اللغة من كتّاب وقرّاء يتساوى في ذلك الصغير مع الكبير، والنساء مع الرّجال، والمهمّش مع المسّود».

العصر الجاهلي:

الجاهلية في المعجم اللغوي: الجَهْل: نقيض العلم، وقد جهله فلان جَهْلاً وجَهالة. وفي الحديث، إنّك امروٌ فيك جاهلية؛ هي الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجَهْل بالله سبحانه ورسوله وشرائع الدّين والمُفاخرة بالأنساب والكِبْر والتّجبّر وغير ذلك. لسان العرب: مادة:جهل. المجلد الثاني)

الجاهلية في القرآن الكريم: وردت لفظة «الجاهلية»، في القرآن الكريم في أربع سورٍ هي (آل عمران"154"، والأحزاب"33"، والفتح"26" والمائدة"50").

قال تعالى: (وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ).(آل عمران 154). و«ظنّ الجاهلية» هو الشكّ والشرك بالله سبحانه وتعالى.

أمّا العصر الجاهلي: «اصطلاح مستحدث، ظهر بظهور الإسلام، وقد أطلق على حال قبل الإسلام تمييزاً وتفريقاً لها عن الحالة التي صار عليها العرب بظهور الرسالة، وقد وردت في السّور المدنيّة، دون السور المكية، فدلّ ذلك على أنّ ظهورها كان بعد هجرة الرسول إلى المدينة، وإنّ إطلاقها بهذا المعنى كان بعد الهجرة، وأن المسلمين استعملوها منذ هذا العهد فما بعده» (علي:1976،ج1، 54).

الأدب النظري:

عاش العرب في الجاهلية حياةً قاسيةً في الصحراء على شكل جماعاتٍ تسمى القبائل، وكانت هذه القبائل في حال ترحال دائم بحثاً عن مصدر الحياة الأول «الماء»، لقد خبروا الزمان وعرفوا أثره الذي يتركه على الديار الدّارسة، ووجه الحبيبة، والشيخ المعمّر، والطفل الصغير، وعرفوا أن حياتهم ستنتهي بالموت لكنهم قاوموه بأشعارهم، ورماح قصائدهم، وسيوفهم التي امتدت إلى أعناق أعدائهم، فقد أدركوا أنّ بقاءهم مرتبط ببقاء القبيلة، فهبوا للدفاع عنها ظالمة كانت أو مظلومة، لثأرٍ أولردّ غارةٍ أودفاعاً عن الذمار، فالحرب هي الموضوع الأول في الشعر الجاهلي؛ فمن أعناق القصائد تطالعنا الأسنة والرماح، وتسنّ السيوف وتزهق الأرواح، وقد صور الشاعر فيها بطولاته وأمجاد قبيلته، وذمّ أعداءها، وصوّر ويلات الحرب ونتائجها الوخيمة على طرفي النزاع. وفي أشعار امرئ القيس خير مثالٍ على تصوير الحرب ومرارتها فقد أجبر عليها ليثأر لدماء أبيه، فأقبل عليها كما يقبل الفارس على صبوة الشباب والجمال، فإذا خَبِرها، نفرَ منها ووصفها بأقبح الصفات:

وديوانه يزخر بألفاظ الحرب وأدواتها، أمّا زهير بن أبي سلمى فقد تناول في ديوانه موضوع الحرب، وكتب معلّقته الشهيرة لإعلان الصلح بين عبس وذبيان بعد سنواتٍ من الحرب القاسية، وقد قمنا بجمع أدوات الحرب التي وردت في ديواني الشاعرين، وصنفناها وفق الجدول الآتي:

أدوات الحرب		العدد
السيوف	السّيف- المشرفيّ- حاريّ (سيف يُنسب إلى الحيرة)- المهنّد (السيف الهنديّ)، المشطب	5
الرّماح:	الرّمح، النَّبل- الخطيّ -القنا- الوشيج –الزَّجاج–الشليل– القسيّ(القوس)-السّمهريّ-ردينية- السّنان- المخراق-السوابغ	13
الدّروع	الدّرع، الجوشن	2
الأغلال	أغلال- إسار- القيد	3
الملابس	الأكفان.	1
الأدوات التي وظّفت في موضوع الحرب	الرّحى – العطر.	2
ألفاظ مرتبطة بالموت وتشييع القتلى	الأران/ الحرج (سرير الموتى)	2
أدوات الخيل	الأرسان -الجِذم (السياط)- اللّبد- سرج- لجام	5
المجموع		33

نلاحظ من الجدول أعلاه أن الألفاظ المتعلقة بالحرب بلغ عددها (33) لفظاً، وبعد إحصاء العدد ننتقل إلى الأنساق الثقافية، والمعاني المضمرة لبعض هذه الأدوات، ومنها:

1-الأدوات المتعلقة بطقوس تشييع الموتى (الأكفان، والأران، والحَرَج):

أ- الأكفان:

قال امرؤ القيس:

فإمّا تَرَيْني في رِحَالةِ جابرٍ على حَرَجٍ، كالقَرّ تَخْفِقُ أكفاني

وقال أيضاً:

وعنسٍ كألواحِ الأرانِ نسأتُها على لاحبٍ كأنّهُ ظهرُ بُرجُدِ

الكَفَنُ: ما يُلَفّ فيه الميّت من قُماش ونحوه، وهو مأخوذ من معنى السّتر والمواراة. (لسان العرب: مادة كَفَن).

ب-الحَرَج والأران: وهما سريرٌ يُحمل عليه المريض والميت، وقيل هو خشبٌ يُشدّ بعضه إلى بعض. (لسان العرب: مادة حَرَجَ)

وهذه تدل على طقوس دفن الموتى عند الجاهليين؛ «وكانوا يكفنون موتاهم، ويصلون عليهم، وكانت صلاتهم إذا مات الرجل وحُمل على سريره يقوم وليّه فيذكر محاسنه كلها، ويثني عليه، ثم يدفن، ثم يقول: عليك رحمة الله«وكانوا يداومون على طهارات الفطره التى ابتلي بها إبراهيم». (الشهرستاني:1992م، ج1، 702)

فقد عرف العرب الجاهليون بعض العادات الحنفية لأنهم عاشوا بين عصري نبوتين هما نبوة إسماعيل (ع) ومحمد (ص).

ج- الرّحى:

وهي الحجر العظيم، وهي أنثى، وهي التي يُطحن بها. (لسان العرب: مادة رحا)

قال زهير في معلقته:

فتعرككم عرك الرّحى بثفالها وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتئم

وقد اقترن تشبيه المنية والحرب بالرّحى وطحنها للدقيق في العصر الجاهلي، ومن أمثلة ذلك، قول عنترة:

ودُرنا كما دارت على قُطبها الرّحى ودارت على هامِ الرّجالِ الصفائحُ

وقوله:

إذا ما الحربُ دارت لي رَحاها وطابَ الموتُ للرّجلِ الشّديدِ

وقول زهير بن جناب الكلبي:

واستدارت رحى المنايا عليهم بليوثٍ من عامرٍ وجنابِ

طحنتهُم أرحاؤها بطحونٍ ذاتِ ظفرٍ حَديدة الأنيابِ

وهذا يدلّ على فكر جماعي موروثٍ متعارف عليه لا يقتصر على زهير وحده دون غيره؛ فقد شاع التشبيه الحسّي للحرب والمنية التي تطحن الرؤوس والأجساد بالرّحى التي تطحن الدّقيق؛ لتقريب صورة الحرب الشنيعة إلى الأذهان، ولابدّ أن يكون لهذه الصورة منبعٌ يتكئ عليه الشاعر الجاهليّ يتعلق بالأساطير الشرقية القديمة؛ «لقد كانت الرّحى أحد أسلحة الآلهة «عَناة» عند صراعها مع «موت» الذي قتل زوجها «بعل» حيث تدخل في معركة فاصلة تنتهي بانتصارها، فحجر الطّاحونة استخدم من أجل طحن الإله (الموت)، من قبل «عناة» التي توازي سيدة الكون «عشتار». وهكذا أصبحت هذه الطاحونة والرحى، من الأدوات التي تستخدم لقهر الأعداء ولتصوير قوة الحرب واشتعالها». (أبو الرب: 2006م، 134)

د-عطر منشِم:

ومنه قول امرئ القيس:

عارِضٍ زَوْراءَ من نَشَمٍ، غَيْرِ باناتٍ على وتَرِه.ْ

منشم في اللغة هو النَّشَمُ ، بالتحريك : شجر جبليّ تُتخذ منه القسيّ ، وهو من عُتُق العِيدان؛ قال ساعدة بن جُؤَيَّة : يأْوي إِلى مُشْمَخِرّاتٍ مُصَعِّدةٍ شُمٍّ ، بِهِنّ فُروعُ القانِ والنَّشَم واحدتُه نَشَمةٌ. قال الأَصمعي : من أَشجار الجبال النَّبْع والنَّشَمُ وغيره تتَّخذ من النَّشَم القِسِيُّ. (لسان العرب: مادة نَشَمَ)

لكنه ورد في معلّقة زهير رمزاً للقتال والموت:

وتداركتما عبساً وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطرمنشِم

قال الأَصمعي هو اسم امرأَة عطَّارة، وكانوا إذا قصدوا الحرب غَمَسوا أَيْدِيَهم في طِيبها، وتحالفوا عليه بأَن يسْتَمِيتُوا في الحرب ولا يُوَلُّوا أو يُقْتَلوا. لذلك يُقال: (أشأم من منشِم). (بَيْنَهُمْ عِطْرُ مَنْشِمَ)، وأصبح مثلاً دارجاً على لسان العرب. وأصبح عطرها رمزاً للحرب والفناء.(التبريزي: 1400هـ، 77)

دوافع الحرب والقتال عند العرب الجاهليين:

فرضت طبيعة الحياة الصحراوية على العربي النظام القبلي؛ فالقبيلة هي الوطن الصغير الذي يحمي الفرد ويذود عنه، فيزول إن زال، ويحيا إن استطاع ردّ الظلم عنه، وحمايه عرضه. ومن أوائل الشعراء الذين تحدثوا عن الحرب وأدواتها امرؤ القيس الذي خاض المعارك الكثيرة للأخذ بثأر أبيه؛ فالملك الذي نفاه أبوه عن مملكته بسبب لهوه وعبثه، أجبرته القوانين الجاهلية ورابطة الدم على الأخذ بالثأر، ورفض الظلم حتى لو كلّفه ذلك حياته وحياة الآخرين، فعاش بقية عمره في خوض الحروب وإراقة الدّماء، فانبعثت موسيقى المعارك، وأصوات الرّماح، وصليل السّيوف من قصائده، وهذه ليست حربه وحده بل حرب قبيلته، ومن تحالف معها من القبائل الأخرى؛ «هذه البنية الاجتماعية لم تنشأ في فراغ، وإنما صنعتها البيئة الصحراوية التي تتسع للتجمعات الكبيرة، بل تتخذ وحدات اجتماعية تناسب إمكانات البيئة. وهذه التنظيمات ينبغي أن تكون قادرة على التماسك والحركة في آن معا. ومن هنا كانت القبيلة هي الوحدة الساسية في بناء المجتمع الجاهلي، وهي وحدة سياسية، وقد تدعو الظروف الطبيعية مثل الجفاف، أو الظروف البشرية الاستثنائية كالحرب إلى تكوين تحالفات أكبر» (الدوري:1985م، 21)

لكنه عندما خَبِرَ الحربَ ومرارتها، صوّر لنا حقيقتها الخادعة وويلاتها.

أمّا حال زهير بن أبي سلمى فلم يكن أفضل من صاحبه؛ فقد شهد حرب عبسٍ وذبيان التي اندلعت إثر فوز فرس حذيفة بن بدر في السّبْق، وخسارة فرّس قيس بن زهير ظلماً، ومطالبة قيس بحقه في الرّهان وهو عشرون من الإبل؛ «فرجع قيس وأصحابه إلى حذيفة وأصحابه، وقال: يا قومُ إنّه لا يأتي قومٌ إلى قومهم شراً من الظلم، فأعطونا حقّنا، فأبت بنوفزارة أن يعطوهم شيئاً- وكان الخَطَر عشرين من الإبل...» (المولى بك وآخران: 1942م، 253). وبلغ تعنّت حذيفة في ظلمه أنه أرسل ابنه يطالب قيساً بالسّبق، فما كان من قيسٍ إلاّ أن قتله، وكان من الممكن تدارك الحرب بالدّية أو القصاص من القاتل وحده، لولا الروح الجاهلية وقوانين القبيلة التي تفرض على أفرادها الانصياع لأوامرها ولو كلّفهم ذلك أرواحهم. «تقوم العصبية القبلية في جوهرها على صلة الدّم والنّسب، واتّخذت أسلوب الثأر منهجيّةً للمحافظة على ذاتها، وعلى أفرادها؛ لذلك تحمّل النظام القبليّ عبئاً ثقيلاً في سبيل الدّفاع عن الأفراد، حيث كانت تهبّ القبيلة بمجموعها لدفع ما قد يلحق بأفرادها من أذى، والثأر لقتيلها، حتى وإن أدّى إلى خوض حربٍ طويلة الأمد». (دلو: 1989م،153) وإذا خرج أحدهم عن أعراف القبيلة وثار على قوانينها، خرج من حمايتها، وأصبح عرضةً للمهالك. ونتيجة لذلك اندلعت شرارة الأخذ بالثأر، ودارت رحى الحرب التي حصدت الأرواح وخلّفت الأحقاد. وجاءت معلّقة زهير إعلاناً بانتهاء الحرب وعقد الصلح بين قبيلتي عبسٍ وذبيان. وهذا هو ديدن شعراء الجاهلية من فحولهم؛ فقد حياتهم بين وقع الرّماح ونزال السيوف، أخذاً بالثأر تارةً، ودفاعاً عن الذّمار، وردّ الظلم تارةً أخرى. نستنتج مما سبق أنّ الحرب كانت وسيلةً للحياة الكريمة، ودفاعاً عن القيم والمعتقدات، وفي أحيان كثيرة كانت مفروضةً على الجاهلي ليثبت ولاءه لقبيلته والتزامه بقوانينها. «إنّ الحرب لم تكن الخيار المفضّل لدى العرب في العصر الجاهلي اضطروا إلى خوضها تبعاً للظروف البيئية والاجتماعية القاسية التي فرضت عليهم فضلاً عن الالتزام بمبادئ العرف القبلي السائد آنذاك والتمسك بالقيم المثلى التي أقرّها المجتمع الجاهلي، وهذا ما دعا الشعراء إلى رسم تلك الصورة القبيحة للحرب وآثارها». (حمدان: 2007م، 14)

أما الثأر عندهم لا يرتبط بالنّظام القبلي فحسب؛ بل بالمعتقدات والأساطير التي تستوجب على العربي الأخذ بالثأر؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنّ لكلّ إنسان روحاً تتمثل في طائرٍ، وإذا مات لسبب غير طبيعي كالقتل، تحوم الهامة حول قبره مطالبةً بالثأر لدم القتيل؛ «وهناك اعتقادٌ أنّ النّفس إذا قُتلت أوأُزهقت، فإنّ روحها تبقى متيقظة قلقةً وهائمة لاترتاح حتى يؤخذ بثأرها، وتُسمّى «الهامة»، وهي على

شكل طائرٍ يضجّ ويصيح: اسقوني اسقوني، فإن قُتل قاتله كفّ عن ذلك». (علي: 1976،).وهذا مايفسّر تحريم امرئ القيس على نفسه شرب الخمرة واللهو حتى يأخذ بثأر أبيه من بني أسد فعندما فعل، عاد إلى حاله السابقة.

2-ألفاظ الحضارة الخاصة بالنّساء:

إذا ابتعدنا عن الحرب وأدواتها، ونظرنا إلى الوجه الآخر للحياة الجاهلية، وخاصةً حياة النساء، وطريقة عيشهنّ في شبه الجزيرة، والوسائل والأدوات التي استعملنها، وجدنا الكثير من الإشارات والرّموز التي تساعدنا على الاهتداء إلى تقديم نموذجٍ عن حياه المرأة الجاهلية. وخيرُ من يحدّثنا عن المرأة وما يتعلق بحياتها وطريقة عيشها امرؤ القيس، الشاعر الجاهلي الذي اشتهر بغزله بالنساء ومغامراته معهنّ، فحياته قبل قتل أبيه كانت ضرباً من اللهو والشّرب والغزل، وديوانه يزخر بأسماء محبوباته، ويشكل وثيقةً مهمة عن حياة النساء في عصره. وكذلك زهير الذي تفنن بذكر الملابس وأنواعها في ديوانه ويوضح الجدول الآتي أهم أدوات النساء التي وردت في أشعارهما:

أدوات الزّينة	العدد
الخلخال، الدّر، الأساور، القلادة، السّجنجل، المرآة ،المداري (الأمشاط)،المداك (حجر يسحق عليه الطيب)، الحنّاء. الجَزع: الخرز.الحُقّ(ماصنع من الخشب).	12

العطور:

المسك، العنبر، البخور(الكباء)، رند (شجر طيب الرّائحة)، الطيب، الألويّ (العود)، لبنى (شجر معصورٌ على ضربٍ من الطيب)، السّنا.القرنفل	9

الملابس:

رازقيّ (كتان)، مُهرق (ثوب أبيض)، البُرديّ، الوُرُك (ثوب يُشدّ على موركة الرّجل)، السحل (ثوب يماني أبيض)، الملاء (أردية الحرير) القبطية (لباس الحرير في الشام) الدِّمَقْس: الحرير الأبيض، الوشاح. النّصيف (الخمار) البِجاد	10
المجموع	32

قدّم لنا امرؤ القيس بعضاً من الأدوات التي استعملتها المرأة الجاهلية لإظهار جمالها من الملابس والعطور وأدوات الزينة وغيرها، فقد حصلت المرأة على نوع من الرفاهية مقارنة بظروف عصرها، ولكن هل ينطبق ذلك على جميع النساء الجاهليات؟ إذا راجعنا ديوان امرئ القيس نجد أنّ المرأة التي أحبها وتغزل بها هي المرأة الثرية والمترفة؛ فهو يقول:

وَتُضْحِي فَتِيْتُ **المِسْكِ** فَوْقَ **فِراشِهَا** نَؤُومُ الضَّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ

هو يقول أن رائحة المسك تنبعث من فراشها، وأنها نؤووم الضحى وهي كناية عن المرأة المترفة التي لا تضطر للاستيقاظ باكراً لإدارة شؤون المنزل فهناك من يقوم بهذه المهمة عنها. وكذلك قوله:

ويَوْمَ عَقَرْتُ لِلْعَذَارَي مَطِيَّتِي فَيَا عَجَباً مِنْ كورها المُتَحَمَّلِ

فَظَلَّ العَذَارَى يَرْتَمِيْنَ بِلَحْمِهَا وشَحْمٍ **كَهُدَّابِ الدِّمَقْسِ المُفَتَّلِ**

الدّمقس والمدقس: كالّثوبِ أبيض، من كتّان، أو إبريسم، أو قزّ، وشبّه لحم هذه الناقة، وهؤلاء الجواري يترامينه، أي يتهادينه، بهدّاب الدّمقس، وهوغزْل الإبريسم المفتول. (التبريزي 1400هـ:، 40)

فالعذارى هنّ من الفتيات المترفات يتهادين الحرير بينهنّ.

كَأَنِّيَ لَم أَركَب جَواداً لِلَذَّةٍ وَلَم أَتَبَطَّن كاعِباً ذاتَ **خِلخالِ**

الخلخال: حليّ مثل السوار.

وفي غزله بأمّ جندب يقول:

ألم تريانى كلما جئتُ طارقاً وجدتُ بها طيبًا وإن لم تَطيَّبِ

من خلال الجدول أعلاه نلاحظ أنّ المرأة التي أحبها امرؤ القيس هي المرأة الثرية المترفة، التي تمتلك الجواهر والحلي، وتستعمل أدوات الزينة وتتطيب بالمسك والعطور. ولبس الحرير.

أما زهير بن أبي سلمى فقد ذكر في معلقته الوشم وفي مواضع أخرى من ديوانه:

ودارٌ لها بالرّقمتين كأنّها مراجعُ وشمٍ في نواشرِ معصمِ

وقال أيضاً:

يَلْحُنَ كأنّهنّ يدا فتاةٍ تُرَجّعُ في معاصِمها الوشومُ

والوشم في اللغة هو الوسوم والعلامات. والوَشْمُ: ما تجعله المرأة على ذراعها بالإبرة ثم تحشوه بالنَّؤور.

وجاء في شرح ديوانه أنّ «الوشم: نقشٌ بالإبرة، كانت نساء أهل الجاهلية يستعملنه يتزينّ به فشبّه آثار الدّيار بوشمٍ ترجعه الفتاة وتردده حتى يثبت في معصمها، والنواشر عصب الذراع، والمعصم موضع السوار من الذراع». (الشنتمري: 1323هـ، 3)

وقد شاع تشبيه الطلل والديار الدارسة بالوشم عند الجاهليين، كقول طرفة بن العبد:

لِخَولَةَ أَطلالٌ بِبُرقَةِ ثَهمَدِ تَلوحُ كَباقي الوَشمِ في ظاهِرِ اليَدِ

وقول لبيد العامري:

جلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها أقلامها

أو رجعُ واشمةٍ أسف نؤورها كففا تعرض فوقهن وشامها

ووجه الشبه بين الأمثلة الثلاثة هو بقاء الوشم وتجديه لعوامل الطبيعة والزمن؛ فكأنه تعويذةٌ استعملها الشاعر الجاهلي لمقاومة الاندثار والرّحيل وبقاء الأحبة، لكن دقَ الوشوم لم يكن حكراً على النساء فقط، بل شاع دق الوشوم على أجساد الأطفال والرجال أيضاً كعلاج لبعض الأمراض؛ «كان قدماء العرب في شبه الجزيرة والشام يضعون وشماً على وجه المريض وعلى جانبي رأسه حين يشعر الإنسان بالصداع. وكذلك على الظهر واليدين والقدمين حين يعاني المريض من آلام العمود الفقري أو مفاصل الاطراف». (مراد: 2008م، 70)

وغالباً ما يرتبط الوشم بالطبقة الاجتماعية لأنّ نقش الوشام انتشر في المجتمعات الفقيرة حيث النساء اللواتي لا يستطعن شراء المجوهرات والأحجار الكريمة للتزيّن بها، «ما زالت الفتيات والنساء يطبعن أيديهن وأقدامهن ومناطق أخرى في الجسم برسوم الوشم وخاصة (بالحناء) فالوشم هو بمثابة حلي للفقيرات، ورموزه تحمل الكثير من الدلالات الاجتماعية والدينية».. www.albayan.ae

وظاهرة الوشم ليس حكراً على المجتمع الجاهلي فقد عرفت أغلب الشعوب القديمة الوشم، وكان لكلّقبيلة أوشامها الخاصة بها؛ «وإنما يعود الوشم إلى التاريخ القديم عندما كان الناس يعيشون حياةً بدائيةً يقدسون فيها بعض الحيوانات، ويخشون فيها من بعض مظاهر الطبيعة كالموج والرّياح والمطر والرّعد. ويقودنا هذا كله غلى أنّ الوشم ظهر في المجتمعات الطوطمية التي تتألف من قبائل وعشائر صغيرة لكلّ منها طوطمه الخاص، وهو عبارةٌ عن نوعٍ حيوانيّ أو نباتي أو أحد مظاهر الطبيعة التي ترتبط بها هذه العشيرة وتتخذها رمزاً لها.....وكان يظّنّ في تلك الأيام أنّه يمنع الحسد». (مراد:2008، 69-71)

ونستنتج مما سبق ذكره وجود نوعين من النساء في العصر الجاهلي؛ المرأة المترفة والغنية التي تغزل بها امرؤ القيس، والمرأة الفقيرة التي تدّق الأوشام، وتضع الحناء للتزين. وهذا يدلّ على التفاوت الطبقي في المجتمع الجاهلي؛ إذ كان هناك طبقة الأشراف وطبقة العبيد؛

«بين الجاهليين أناس عرفوا بالغنى وبالثراء وبكثرة المال، كالذي ذكرته عن بعض رجال مكة.. فقد كان بينهم رجال متخمون شبعون، سكنوا بيوتاً حسنة، زيّنوها بأثاث جيد وثر، ولبسوا ملابس الحرير والألبسة الجيدة المستوردة من بلاد الشام واليمن، وشربوا بآنية من ذهب وفضة وبلور. وساهموا في قوافل تجارة مكة الجماعية. كما كانت لهم قوافل خاصة بهم، تأتي إليهم بأرباح طيبة.....وكان بين الجاهليين فقراء معدمون مدقعون لم يملكوا من حطام هذه الدنيا شيئاً. وكانت حالتهم مزرية مؤلمة. منهم من سأل الموسرين نوال إحسانهم، ومنهم من تحامل على نفسه تكرماً وتعففاً، فلم يسأل غباً ولم يطلب من الموسرين حاجة، محافظة على كرامته وعلى ماء وجهه، مفضلاً الجوع على الشبع بالاستجداء». (علي:ج2، 1976، 88)

2- **كحل الإثمد:** حجرٌ يُتّخذ منه الكحل، وقيل ضربٌ من الكحل. (لسان العرب: "مادة ثَمَد")

قال زهيربن أبي سلمى:

وتنضحُ ذِفراها بجَونٍ كأنّه عصيمُ كُحيلٍ **في المراجل** معقّدِ

وناظِرتينِ تطحرانِ قذاهُما كأنّهما مكحولتانِ **بإثْمدِ**

أوّل من اكحتل بالإثمد : قيل أنّ أول من اكتل امرأة يقال لها "اليمامة".

وقد ذكرت قصة «زرقاء اليمامة» في كتب التاريخ حيث كانت تتمتع ببصر حادٍ وتنبئ قومها ببأن العدو مقبلٌ عليهم، فيستعدون له ويخرجوه من أرضهم، إلى أن قام الأعداء ذات مرة بحيلة ماكرة للتستر والاختفاء من زرقاء

اليمامة حيث قام جيشهم بقطع الأشجار وقاموا بوضعها في مقدمة جيشهم لتضليل أهل اليمامة، ومفاجئتهم والهجوم المفاجئ عليهم. وبالفعل نظرت زرقاء اليمامة فقالت: «إنّي أرى شجراًقد أقبل عليكم».

فما كان من قومها أن سخروه منها ومن تنبيهها لهم ولم يأخذوه تحذيرها لهم على محمل الجد إلا أن فاجئهم جيش الأعداء وقام بالهجوم عليهم وهزيمتهم شر هزيمة بل قام جيش الأعداء بقتل زرقاء اليمامة بعد أن قاموا بقلع عينيها حيث إنهم عندما قلعوه عينيها وجدوه في عروق عينيها مادة الأثمد الزرقاء وذلك يرجع لكثر اكتحالها به. «ابن عبد ربه الأندلسي:66/1983)

ولم يستعمل العرب الكحل فقط للزينه بل تداووا به ؛ «أما عن الطب ووسائل العلاج عند العرب فقد اعتمدوا على أساليب بدائية مثل بعض الوصفات الشعبية المتوارثة عن الأجيال السابقة، مثل التداوي ببعض الأعشاب البرية، والفصد والحجامة، والكي، وعرفوا الحمية وعالجوا بها أمراض البطن، والجهاز الهضمي، واستخدموا الماء البارد والغسل به لتبريد من به حمى، وكانوا يتكحلون لعلاج أمراض العين، أو يستخدمون الصبر وهو دواء مر المذاق لعلاج الرمد» (ابن أنس، 1985م، 598) كما ورد في الحديث

النبوي الشريف عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «اكتحلوا بالإثمد، فإنه يجلو البصر وينبت الشعر».

3-أدوات الخمرة:

الخمرة	
ألفاظها	راووق، ناجود (إناء لتصفية الخمرة) الكأس
الأشخاص الذين يتعاطون الخمرة	السابئ، النشاوى (جمع منتشي) المغني(الغناء)
أسماؤها	الراح
ألوانها	الزّعفران، الدم

قال زهير بن أبي سلمى:

تاللَّهِ قَدْ عَلِمَتْ سَرَاةُ بَني ذبيانُ، عام الحبسِ، والأصرِ

أنْ نعمَ معترَكُ الجياع، إذا خَبّ السّفِيرُ **وسابىءُ الخَمْرِ**

وقدْ أغدو على ثُبَةٍ كرامٍ **نشاوى** واجدينَ لِما نشاءُ

لهم **راح وراووق ومسك** تعَلُّ به جلودهم وماء

يجرون البرود وقد تمشت حميا **الكأس** فيهم **والغناء**

4-الأدوات المرتبطة بعبادة الأصنام:

قال امرؤ القيس:

فَعَنَّ لَنَا سِرْبٌ كَأَنَّ نِعَاجَهُ عَذَارَى دَوَارٍ فِي مُلاءٍ مُذَيَّلِ

دوار:الصنم يدورون حوله، الملاء: الملاحف. ومعنى البيت أنه يصف هذا القطيع من البقر، يلوذ بعضه ببعض، وتدور كما تدور العذارى حول دوار، وهو نُسُكٌ، كانوا في الجاهلية يدورون حوله. (التبريزي: 79)

وقال أيضاً:

يارُبّ يومٍ قد لهوتُ وليلةٍ بآنسةٍ كأنّها خطَ **تمثال**

التمثال -دوار	2

نتائج الدّراسة:

1-أكثر الأدوات التي استعملها العرب هي أدوات الحرب والقتال، فدواوين الشعراء تزخر بأسماء

السيوف والرماح حتى تكاد تسمع صليل الحسام، وصهيل الخيل وتليها أفاظ الحضارة المرتبطة بالنساء كأدوات التزيين والملابس والعطور وتليها الأفاظ المتعقة بالخمرة وطقوسها.

2-خاض الجاهليون الحروب مكرهين للأخذ بالثأر ملبين الطقوس الأسطورية للميثولوجيا الشرقية التي كانت منتشرة في المجتمعات المجاورة لهم.

3-تمتعت بعض النساء الجاهليات بقسط من الرفاهية والترف، والبعض الآخر عانى من الفقر والجوع وهذا يدل على التفاوت الطبقي في المجتمع الجاهلي.

4-نلاحظ ألفاظ الحضارة المتعلقة بالمرأة في شعر امرؤ القيس الدالة على حياة الترف والبذخ لأنه عاش في قصور اليمن واختبر حياة الملوك وجاء شعره مشابهاً لحياته.

5-استعمل العرب الكحل كوسيلة للتجميل، وكعلاج طبي لأمراض العين، كما أثبت العلم الحديث فوائد الكحل العربي،كذلك أثبت ابن سينا فوائده الكثيرة.

6-آمن الجاهليون بوجود الشيطان والأرواح الشريره فاستعملوا تمائم تبطل مفعول السحر والحسد كالوشم

الذي بدا في معلقة زهير تميمةً تقي الطلل من الخراب والاندثار، فقد استخدمت في الواقع لطرد الأرواح

الشريرة، وقد دق الجواري والإماء الوشوم على أجسادهنّ تشبها بالحرائر العربيات اللاتي يملكن الجواهر

والأساور.

7-جاء توظيف ألفاظ الحضارة في سياق غير مباشر كالتشبيه والاستعارة وهذا دليل على أنهذه الألفاظ لها نسق ثقافي في الذاكرة الجمعية للمجتمع الجاهلي ولا ترتبط بشخصٍ دون غيره.

المصادر والمراجع:

1-أبو بكر، عاصم بن أيوب(1324هـ).شرح ديوان رئيس الشعراء أبي الحرث الشهيربامرئ القيس بن حجر الكندي. الطبعة الأولى.مصر.

2-أبو الرب، ابتسام نايف الصالح(2006م).صور الحرب وأبعادها الأسطورية في الشعر الجاهلي. رسالة قدمت لنيل درجة الماجستير في جامعة النجاح الوطنية. فلسطين.

3-التبريزي(1400هـ).شرح القصائد العشر. ت:فخر الدين قباوة. . الطبعة الرابعة. دار الآفاق الجديدة.بيروت.

4-الدوري، عبد العزيز(1985).التكوين التاريخي للأمة العربية. الطبعة لثانية. دار المستقبل العربي. القاهرة.

5-الشنتمري، أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى بن معروف(1323هـ).شرح ديوان زهير بن أبي سلمى المُزني. الطبعة الأولى. المكتبة الحميدية. مصر.

6-الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم(1992م). الملل والنحل. صححه وعلّق عليه: أحمد فهيمي محمد. الطبعة الثانية.دار الكتب العلمية. بيروت.

7- (المولى بك، محمد أحمد جاد) و(البجاوي، علي محمد) و(إبراهيم، محمد ابو الفضل) (1942م). أيام العرب في الجاهلية. الطبعة الأولى. دار إحياء الكتب العربية. مصر..

8-الغذامي،عبدالله(2005).النقد الثقافي "قراءة في الأنساق الثقافية العربية".المركز الثقافي العربي. الطبعة الخامسة.الدّار البيضاء/ بيروت.

9-القاسمي، علي(2009).ألفاظ الحضارة "ماهيتها وأثر توحيدها في تنمية اللغة العربية". مجلة المجمع الجزائري للغة العربية. العدد التاسع.

10-ابن أنس، مالك(1985م). الموطأ. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي. الطبعة الأولى. بيروتكجا ارجاع داريد

11-ابن عبد ربه الأندلسي« أحمد بن محمد(1983م)العقد الفريد.المحقق: مفيد محمد قميحة. الطبعة الأولى .دار الكتب العلمية... ...

12-ابن منظور(1992م). لسان العرب. نسقه: علي الشيري.الطبعة الثانية. دار إحياء التراث العربي. بيروت.

13-تيمور،محمود(1971م).ألفاظ الحضارة.مجلة اللسان العربي.المجلد التاسع. الجزء الأول.

14-حمدان، كامل عبد ربه(2007). الصورة البشعة للحرب في الشعر الجاهلي. مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية. العددان الثالث والرابع. المجلد السابع. ص:9-16.

15-دلو، برهان الدين(1989). جزيرة العرب قبل الإسلام. الطبعة الأولى. دار الفارابي. بيروت.

16-علي، جواد (1976). المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام. الطبعة الثانية. دار العلم للملايين.بيروت. الجزء الأول والثاني.

17-مراد، بركات محمد(2008م). فن الوشم "رؤية أنثربولوجية نفسية". مجلة الثقافة الشعبية. السنة الأولى.العدد الثالث. البحرين. 66-80

المواقع الإلكترونية:

1- محمد يوب(2010) المنهج الثقافي، البحث عن الهويّة المفقودة.. الحوار المتمدن www.m.ahewar.org

2-فن الوشم. ثقافة الشعوب في أسطورة الألم.(2009) www.albayan.ae